المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة
الجمهورية العراقية
المجلد الخامس عشر - العدد الاول ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

١

WWW.ATTAWEEL.COM

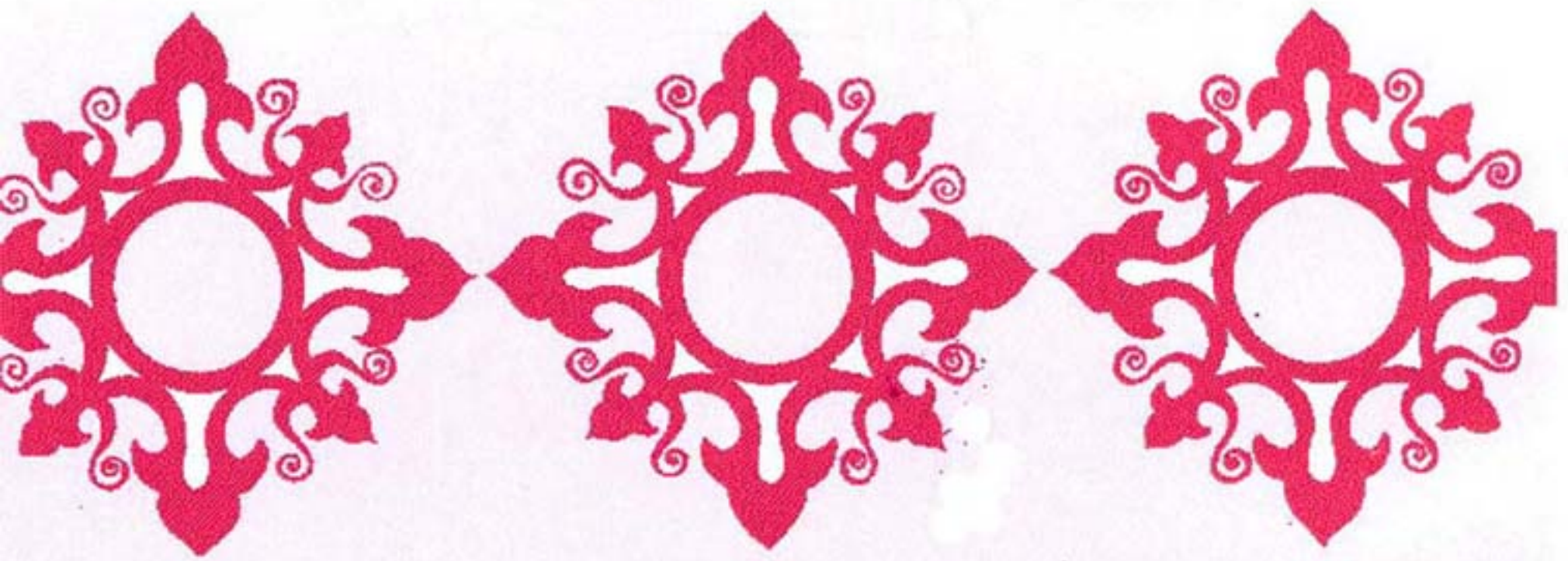

أسعد الحاج محمد

علوم اللسان عند ابن خلدون

الدكتور

عبد السلام المسدي

كلية الآداب / الجامعة التونسية

اذا كان من المسلم به ان عبدالرحمان ابن خلدون هو اول من ارسى قواعد فلسفة التاريخ وانه في سعيه ذاك قد اشتق من علم التاريخ علما آخر غدا قائما بذاته هو علم العمران فان الناظر في مقدمة كتاب العبر(١) إذ يقف فيها على ما حظيت به القضايا اللغوية من فحص وتحليل ليتساءل عن اسرار هذه الحيرة المعرفية التي قادت فيلسوف علم التاريخ وواضع علم الاجتماع الى ان يعتني الاعتناء الكلي بالمعارف اللغوية فيستكشف حقائقها ويفحص ظواهرها مستكنها نواميسها الخفية . ولكن هذا التساؤل لايفضي الى اخصاب البحث في مقدمة كتاب العبر الا اذا حمل في مظانه كشفا وصفيا للبنية العلمية التي اسس عليها ابن خلدون تصوره للمعارف اللغوية وتصنيفه لأفنانها بحسب ما تتوزع اليه من حقول الاختصاص في قضايا اللغة .

وإذ يكتشف الباحث علاقة هذه المعارف اللغويةبعضها ببعض وكيف ارتبطت ضمن النسيج العلمي الذي ابتناه الفكر الخلودني لا يسعه الا ان يتساءل عن المنزلة التي تتبوؤها علوم اللغة بين سائر العلوم البشرية التي تحدث عنها ابن خلدون وخصها بالتعريف والتحليل ثم بالنقد والتأسيس ؛ ولعل هذا التساؤل سيعود بالاستتباع الى البحث في قضية تصنيف العلوم عند ابن خلدون وما قد اهتدى اليه من احكام تنظيمي بين المعرفة اللغوية وسائر المعارف الكونية مما قد يكون احد مواطن الطرافة والابتكار عند صاحب المقدمة .

فاذا استقام للباحث وصف شبكة الارتباط بين العلوم اللغوية ذاتها ثم بينها وبين سائر المعارف ولم يغفل عن طبيعة المادة الاولية التي هي عصارة فلسفة علم التاريخ وثمرته القصوى افلا يتعين عليه التساؤل عما اذا كانت آراء ابن خلدون في المعارف اللغوية وليدة حوار نوعي اجراه عقله الناقد مع هذا النمط من العلوم في معزل عن كل تعاظل معرفي ام انها آراء تولدت نمت وتكاملت ضمن نظرية عامه محورها الظاهره اللغوية كليا ؟ فان صدق هذا الافتراض افيجوز الا تقوم بين نظرية ابن خلدون في اللغة ونظريته العامة في المعارف الكونية روابط مبدئية اذا استخرجناها اهتدينا الى المنظومة المعرفية العامة التي كان عبدالرحمان ابن خلدون يصدر عنها في كل ما يضع .

ولكن بأي لفظ اصطلاحي نتحدث عما نريد ان نتحدث عنه حتى يستقيم حوارنا مع صاحب « العبر » ؟

لقد اهتم العرب بدراسة الظاهرة اللغوية منذ بداية الحركة العلمية في اطار النهضة العربية الاسلامية فكانت جهودهم فيمجالات الأصوات وبناء

(١) نحيل على طبعة دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٤ ، (د . ت .) .

WWW.ATTAWEEL.COM

الكلمة وبناء الجملة والمفردات ؛ وكان المشتغلون بالعلوم اللغوية يصنفون الى مجموعتين تهتم المجموعة الأولى ببنية اللغة وتهتم المجموعة الثانية بمفردات اللغة ودلالاتها. وقد وصف مجال البحث عند المجموعة الأولى بانه « النحو » او « علوم العربية » بينما وصف مجال بحث المجموعة الثانية بأنه « اللغة » أو « علم العربية » او « فقه العربية » أو « متن اللغة » والى جانب هذه المصطلحات وجدت محاولات لوصف علوم اللغة فسميت « علم اللسان » أو « علوم اللسان العربي » او « علوم الادب » او « العلوم العربية » كما وجدت الى جانب هذا محاولات لبيان ترابط هذه المجالات وايضاح النسق الذي يتخذه كل منها في اطار البحث اللغوي العام[٢] .

وبديهي ان يكون لابن خلدون معجمه الاصطلاحي الذي يحدد للألفاظ ابعادها الفنية لتصبح ادوات مفهومية على الصعيد النظري وضوابط ملموسة على الصعيد التطبيقي غير أن هذا الثبت الاصطلاحي يرتبط تاريخياً بجملة السنن الدلالية التي ولدها الفكر العربي واطردت في الاستخدام القاموسي ، فكان ابن خلدون فيها وريثا ومجددا في نفس الوقت .

لقد احكم ابن خلدون هيكل المعرفة اللغوية بان اقامها على اركان اسماها علوم اللسان وهي في مقامه النوعي علوم اللسان العربي وقد سبق لبعض اعلام التراث العربي ـ كما اسلفنا ـ ان حاولوا الامساك بزمام المعارف المتصلة بالظواهر اللغوية بغية جمعها في نسق نظري يلم بأشتاتها ؛ وترجع اول محاولة لترتيب المشاغل اللغوية في نمط متكامل الى ابي نصر الفارابي[٣] في كتابه « احصاء العلوم » وقد اطلق الفارابي على كل العلوم اللغوية اسما شاملا لها هو « علم اللسان » ويتألف عنده من عدة مجالات ، يقابل « علم الالفاظ المفردة » في تصنيف الفارابي علم الدلالة في التصنيف الحديث ؛ ويتناول « قوانين الالفاظ عندما تكون مفردة وعندما تركب » البحث في الاصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة على التوالي ؛ ولكن الفارابي ادرج ضمن علم اللسان « علم الالفاظ المركبة التي صنعها خطباؤهم وشعراؤهم » ، اي دراسة الحدث اللغوي عندما يخرج من دائرة التخاطب والمحاورة الى نطاق الابتكار الفني .

اما ابو البركات الانباري[٤] فقد اطلق على المعارف اللغوية مصطلح « علوم الادب » وهي عنده النحو واللغة والتصريف وعلم الجدل في النحو وعلم اصول النحو بالاضافة الى العروض والقوافي وصنعة الشعر واخبار العرب وانسابهم . ويقدم لنا ابو يعقوب السكاكي[٥] في « مفتاح العلوم » تصنيفا لعلوم اللغة يقوم على اساس « مثارات الخطأ » فالخطأ اللغوي يمكن ان يكون في بنية الكلمة المفردة وهذا موضوع « علم الصرف » وقد يكون في تاليف المفردات داخل الجملة وهذا موضوع «علم النحو» وقد يكون في مطابقة العبارة للمعنى وهذا موضوع علمي « المعاني والبيان » واعتبر السكاكي علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان بالاضافة الى علم اللغة مجموعة علوم متكاملة انتظمت عنده في نسق واحد[٦] .

وكان ابو حيان النحوي اول من اطلق على المشاغل المتصلة بالظاهرة اللغوية مصطلح « علوم اللسان العربي » وهي تضم حسبه علم اللغة وعلم التصريف وعلم النحو ؛ ويتناول الأول مدلول

---

(٢) يراجع ما افاض فيه صديقنا الدكتور محمود فهمي حجازي : علم اللغة العربية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣ ، ص ٥٩ ـ ٧٢ .

(٣) ابو نصر الفارابي :
عاش بين سنتي ٢٦٠ ـ ٣٣٩هـ ، علم من اعلام الفلسفة العربية الاسلامية ، لقب بالمعلم الثاني بعد ارسطو وذهب الى التوفيق بين فلسفته وفلسفة افلاطون ، يعد كتابه احصاء العلوم من اول المحاولات التاليفية في تصنيف المعارف وتاسيس فلسفة العلوم : تحقيق عثمان امين ، ط ٢ ، دار الفكر العربي بمصر ، ١٩٤٧ . على ان الفارابي قد عرض لنفس الموضوع مع تاكيد على علاقة علم المنطق بعلم النحو في رسالته الموسومة بكتاب التنبيه على سبيل السعادة ، وقد طبعت في حيدر آباد سنة ١٣٤٦ للهجرة ، ثم اخرجها عبدالوهاب ملا عن مخطوطة بمكتبة برلين ونشرها في مجلة « فكر وفن » مونيخ ، ع ٢٩ ، ١٩٧٧ ، ص ٦: ـ ٢١ .

(٤) ابو البركات الانباري :
عاش بين سنتي ٥١٣ ـ ٥٧٧ هـ ، من اللغويين المتاخرين لذلك اعتنى بالبحث في المسائل الخلافية التي سادت النحو العربي فالف اشهر ما عرف في هذا المجال وهو كتابه الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين.

(٥) ابو يعقوب السكاكي :
ولد مع منتصف القرن السادس الهجري وتوفي سنة ٦٢٦، اقبل على تحصيل المعارف اللغوية في سن متقدمة فعمل على تبويبها وتصنيفها فوضع في ذلك كتابه « مفتاح العلوم » الذي اقامه على تتابع الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والاستدلال والعروض والقافية ، فاتخذ حجة في علم البلاغة لدى المتاخرين جميعا . (ط ١ ، القاهرة ، ١٩٢٤٧) .

(٦) انظر محمود فهمي حجازي : المرجع السالف الذكر .

مفردات الكلم ويتناول الثاني احكام مفردات الكلم قبل التركيب اما الثالث ـ وهو علم النحو ـ فيتناول احكام مفردات الكلم حالة التركيب .

واقتفى ابن خلدون أثر ابي حيان النحوي في استعمال مصطلح « علوم اللسان العربي »(٧) ونصرف فيه بان اشتق منه مصطلح « العلوم اللسانية »(٨) ولكنه اجتهد في مضمونه فأقام له تصورا تصنيفيا جاء بمثابة الثمرة التاليفية لجهود سالفيه جميعا .

ان علوم اللسان العربي عند ابن خلدون تستند الى بنية رباعية تكشف تصورا نظريا يحدد المراتب التي تتجلى عليها الظاهرة اللغوية اطلاقا ، ولبيان هذه العلوم خصص ابن خلدون الفصل السادس والثلاثين من آخر أبواب المقدمة الذي هو الباب السادس : « العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه » .

يذكر ابن خلدون منذ مطلع الفصل ان هذه الأركان الأربعة هي اللغة والنحو والبيان والأدب فيورد ذكرها مجردة عن كل وسم ثم انه اذ يعرج على « تفاوت مراتبها في التوفيه بمقصود الكلام » يعلق ذلك بما « يتبين في الكلام عليها فنا فنا »(٩) فكانما يحشرها بدءا في عداد الفنون ولكنه يستانف الحديث عنها مفصلا اياها ومردفا الى كل واحد منها مصطلح « العلم » فاذا هي « علم اللغة » و « علم النحو » و « علم البيان » و « علم الأدب » وهذا في حد ذاته تمحيض معرفي يكشف لنا عن ابعاد تنظيرية واصولية .

ولئن بوا ابن خلدون « علم اللغة » ـ في مقدمة فصله ـ المنزلة الأولى مثنيا اثره بعلم النحو فانه عندما هم بتفصيل القول في امر هذه الأركان الأربعة عكس المراتب فبادر بعلم النحو وثنى بعلم اللغة ، وكان في صنيعه ذلك واعيا كل الوعي فلم يعوزه التاسيس النظري لهذا الاجراء التصنيفي ، وسنعود اليه .

لقد اقام ابن خلدون حديثه عن « علم النحو »(١٠) على منهج تكويني جدلي اذ انطلق فيه من استقصاء الاسباب التاريخية التي ادت الى وضعه رابطا ذلك بالعلة الاولى التي هي حفظ مقاصد الشريعة ، ولما كانت ملكة اللسان العربي قد طرأ عليها التغير فقد خيف ان « ينغلق القرآن والحديث على المفهوم »(١١) وهذه هي الدائرة المنطقية التي علل بها ابن خلدون منذ مطلع الفصل تحتم النهوض بالعلوم اللغوية جميعها « اذ ماخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم ، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن اراد علم الشريعة »(١٢) .

ويخلص ابن خلدون بعد ذلك الاستقراء التاريخي الى وضع النحو ، وهو اذ يصف نشاة هذا العلم يعرفه فاذا به يقيم له حدا هو على غاية من الدقة والشمول بحيث يصدق عليه مقياس « الجمع والمنع » كما اشترطه المناطقة في عملية « الحد » ثم هو على حظ واسع من التجريد الذهني الذي تتاسس به المعرفة الأصولية في فلسفة العلوم .

اما مضمون هذا التعريف فينطلق من اعتبار النحو استنباطياً مداره الاستعمال اللغوي الذي يعبر عنه ابن خلدون بمجارى الكلام وهذا معناه ان النحو يسعى الى تاسيس « المعيار » انطلاقا من « الاستعمال » : وهذا التاسيس مداره استنباط « القوانين » التي تتحكم « الملكة » اللغوية : فاذا بالنحو علم تجريدي غايته استخراج النواميس الخفية المحددة للحدث الكلامي على لسان المجموعة اللغوية المتكلمة به . وبهذا الاعتبار تنصب العملية النحوية في اشتقاق القوالب الذهنية المجردة وهي التي يطلق عليها ابن خلدون أدق ماعرف لها من مصطلحات الا وهي « الكليات » .

هكذا انتهى المشتغلون من العرب بوضع علمهم اللغوي الى ان « استنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر انواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل ان الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدا مرفوع ،، ثم راوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته اعرابا ؛ وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وامثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو »(١٣) .

---

(٧) المقدمة ، ص ٥٤٥ .
(٨) المرجع ، ص ٥٥٠ .
(٩) ص : ٥٤٥ .
(١٠) ص : ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .
(١١) ص : ٥٤٦ .
(١٢) ص : ٥٤٥ .
(١٣) ص ٥٤٦ .

ويأتي ابن خلدون الى ثاني الاركان في علوم اللسان وهو « علم اللغة » ومداره المفردات اللغوية من حيث هي المادة الأولية للكلام ولذلك تحرى ابن خلدون حصره ببيان «الموضوعات اللغوية» ولايفهم مصطلح الموضوعات الا باتخاذه نعتا في صيغة الجمع لنعوت قائم في الذهن ، فيكون المقصود بعبارة ابن خلدون « أجزاء اللغة الموضوعات وضعا » وهي الكلمات ؛ وهذا الفهم يتعذر اذا حملنا لفظ « الموضوعات » على أنه متمحض للاسمية .

ولقد أطلق رواد الحركة اللغوية على عملية جمع المادة المعجمية مصطلحات عدة بداها ابو الطيب اللغوي(١٤) بمصطلح « اللغة » ثم قال ابن فارس(١٥) « فقه اللغة » وتبعه فيه الثعالبي(١٦) ، واطلق الرضي الاستراباذي مصطلح(١٧) « علم اللغة » واقتفى اثره ابو حيان النحوي(١٨) وابن خلدون ، وهناك من آثر مصطلح « علم متن اللغة » فاختصره المختصرون فقال بعضهم « متن اللغة » واكتفى الآخر بلفظة « المتن »(١٩) .

ان علم اللغة عند ابن خلدون هو عبارة عن تاريخ جمع المادة اللغوية بعد استقرائها من مظان الاستعمال فهو بذلك جنيس علم المعاجم في التصور الحديث ، وطبيعي ان يتتبع صاحب المقدمة جهود الاعلام البارزين في هذا الحقل مبتدئا باولهم في الزمن وفي الاعتبار وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي(٢٠) ؛ ولا يخفى ابن خلدون اعجابه بهذا العقل الرياضي العجيب سواء في ابتكاره طريقة حاصرة قاطعة لجمع رصيد اللغة او في اعتباره ان المادة اللغوية منها مستعمل ومنها مهمل وغير خفي ان هذا التصور الثنائي على اساس المستعمل والمهمل هو على غاية من التركيز النظري الخالص، ولا يضير طرافة هذا التصور في شيء أن كان منطلقه حرص الخليل على ايجاد معيار رياضي صارم لجمع لغة العرب ، فاستنبط بذلك مبدأ التقليبات المختلفة ليحدد بالاقرار أو بالعزل مادة المعجم العربي الذي وسمه بكتاب العين ، ولقد اطنب ابن خلدون في تحليل العمليات الرياضية التي على اساسها ضبط الخليل خطة الحصر القاموسي بحثا عن القوالب الممكنة قبل ان يميز المستعمل من المهمل وهو ما يجعل اللغة رصيدا فعليا مشتقا من رصيد محتمل فتكون في اللغة طاقتان : طاقة من التصريف الفعلي هي بمثابة الحجم الكمي المكرس للاستهلاك والتداول وطاقة من الرصيد المحفوظ هي عبارة عن اختزان مدخر يمثل القدرة الاحتياطية التي هي قدرة مرصودة .

يقول ابن خلدون : وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن احمد الفراهيدي الف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي اليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاضرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الاعداد على التوالي من

---

(١٤) ابو الطيب اللغوي :

من نحاة القرن الرابع توفي سنة ٣٥١ للهجرة كان ذا وجهة موسوعية الف « الابدال » و « الاضداد في كلام العرب » و « شجر الدر في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة » ولكنه اهتم خاصة بتدوين طبقات النحاة فالف كتابه الشهير « مراتب النحويين » .

(١٥) احمد بن فارس :

من اشهر علماء اللغة العربية عاش في القرن الرابع وتوفي في اواخره (سنة ٣٩٥ هـ) من اشهرما دون : « متخير الالفاظ » و « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » و « معجم مقاييس اللغة » .

(١٦) ابو منصور الثعالبي :

ولد في منتصف القرن الرابع وتوفي سنة ٤٢٨ للهجرة من اشهر العلماء المهتمين بتدوين اللغة من مؤلفاته : « الابجاز والاعجاز » و« ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » و « فقه اللغة وسر العربية » و « يتيمة الدهر » .

(١٧) الرضي الاستراباذي :

من النحاة المتاخرين توفي سنة ٦٨٨ للهجرة لذلك اعتنى بشرح المتون وخاصة المتنين التعليميين اللذين الفهما ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦هـ والموسومان بالكافية وهو في علم النحو و « الشافية » وهو في علم الصرف .

(١٨) ابو حيان النحوي :

من علماء الاندلس في القرن الثامن اشتهر فيها ثم رحل الى المشرق لقب بالنحوي تمييزا له عن ابي حيان التوحيدي وفي المشرق لقب بالاندلسي . ويقال له ايضا بابن حيان لان أحد اجداده حيان ، وضع تفسيرا كبيرا يعرف بالبحر وألف في النحو « الارتشاف » و « شرح التسهيل » توفي سنة ٧٤٥ للهجرة .

(١٩) راجع محمود فهمي حجازي : علم اللغة العربية ، ص ٦٥ – ٦٨ .

(٢٠) الخليل بن احمد الفراهيدي :

يعتبر رائد المعارف اللغوية في الحضارة العربية الاسلامية تتلمذ اليه سيبويه وزامله عاش الثلثين الاولين من القرن الثاني ، اليه يرجع وضع علم المعاجم وعلم العروض وكثير من الآراء النحوية ، الف كتاب العين وهو المعجم الموسوعي الاكمل في اللغة العربية .

واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لان الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فتكون كلها اعدادا على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند اهل الحساب ثم تضاعف لاجل قلب الثنائي لان التقديم والتاخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لان كل ثنائية يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العددويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب ابوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرا وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين لانه الأقصى منها فلذلك سمي كتابه بالعين(٢١) .

هذا الركن الثاني من أركان علوم اللسان اذا ما قدرنا امره بمعيار الزمن كان سابقا لعلم النحو اذ مداره الالفاظ من حيث هي اجزاء ، ومدار النحو التركيب من حيث هو « كل » والجزء سابق للكل في اصل النشأة ولكننا اذا وازنا بين الركنين من حيث قيمة كل منهما في استقامة امر الكلام وخطره في مدى سلامة بنية اللغة او انخرامها وجدنا علم النحو سابقا لعلم اللغة سبقا اعتباريا لا سبقا زمنيا ، فمقياس الموازنة ذو بعد وظيفي قبل كل شيء ، وهذا ما وعاه ابن خلدون الوعي الكامل اذ يقول : « والذي يتحصل ان الأهم المقدم منها هو النحو اذبه تتبين اصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل اصل الافادة ، وكان من حق علم اللغة التقدم لولا ان اكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم يتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له اثر فلذلك كان علم النحو اهم من اللغة اذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة »(٢٢) .

ثم يأتي ابن خلدون الى « علم البيان » : الركن الثالث من علوم اللسان وهو علم البلاغة كما اطرد العرف عليه ، ولكن ابن خلدون يجري اجتهادا في تخير المصطلحات يعدل فيه عما استقر استعماله، فمعلوم ان البلاغة علم اصلي ينقسم الى فروع ثلاثة هي علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع فاذا بابن خلدون يطلق على العلم الكلي اسم احد فروعه وهو البيان ويطلق على هذا الفرع اسم العلم الكلي وهو البلاغة فيذهب بذلك على مستوى المصطلحات الى اجراء تبادلي لعل الذي جره اليه هو اقتفاؤه اثر السكاكي وقد اعتبره العلم الذي انتهت اليه الرئاسة في هذا الباب فقد « تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد اخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاءات غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا الى ان محص السكاكي وهذب مسائله ورتب ابوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذه المتأخرون من كتابه ولخصوا منه امهات هي المتداولة لهذا العهد(٢٣) » .

اما مضمون هذا الركن الثالث من أركان علوم اللسان فيتصل بأحوال الدلالة كما تقتضيها اقوال المتخاطبين ، فليس الأمر متعلقا بظاهرة التركيب اللغوي — وهو ميدان النحو — وانما بصوغ الكلام على هيئة يبلغ غايته القصوى وهي الافادة . ويفصل ابن خلدون القول في شأن أبواب البحث البلاغي وكيف تتميز عن ابواب النحو الى ان يمسك بزمام حد العلم فيؤسس له تعريفه النظري من حيث هو وظيفة ابلاغية تتراكب مع الوظيفة التعبيرية

(٢١) المقدمة : ص ٥٤٨ — ٥٤٩ .

(٢٢) ص : ٥٤٥ — ٥٤٦ .

(٢٣) المرجع ، ص ٥٥٢ .
وابن خلدون يذكر رواد علم البلاغة على غير تفصيل ولئن لم يصلنا امر ذو بال مما كتب جعفر بن يحيى فان الجاحظ الذي عاش بين سنتي ١٥٠—٢٥٠ للهجرة يعد فعلا ابرز منظري علم البلاغة في طور نشأته ولا سيما بكتابه « البيان والتبيين » . على ان موسوعته « الحيوان » قد تخللتها استطرادات كثيرة تتصل بهذا الفن وما اليه من المعارف اللغوية .
اما قدامة ابن جعفر فمتاخر عنه اذ يرجح انه توفي سنة ٣٣٧ للهجرة وقد استحق الرتبة في هذا المقام بمصنفه : كتاب نقد الشعر ، نشره بويبتارك ، مط . بريل ، ليدن ، ١٩٥٦ .

الأولى التي يؤديها الحدث اللغوي ابتداء : « وهذه كلها دلالة زائدة على الألفاظ من المفرد والمركب وانما هي هيئات وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات »(٢٤) .

وآخر أركان علوم اللسان في هيكل المعارف اللغوية كما تصورها ابن خلدون هو علم الأدب ، ويتحرى صاحب المقدمة منذ البدء في تحقيق نسبة **هذا الركن الى صنف المعارف الدقيقه فكأنما هو** يتحرز من اطلاق رسم « العلم » عليه : هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم »(٢٥) وبهذا التحري المبدئي يصيب ابن خلدون هدفه المعرفي المزدوج وهو رسم مجال العلم ثم حده بوظيفته التي هي «ثمرته» وتتعين بمبدأ « الاجادة » مما يحول الظاهرة اللغوية الى وضع فني على نسيج الشعر والنثر .

ويعرج ابن خلدون على ضرورة حفظ كلام العرب للحصول على ملكة الابداع بما يستقيم معه اقتفاء « أساليب العرب » و « مناحي بلاغتهم » ثم يذكر أمهات الأدب وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي(٢٦) ، ولكنه يستدرك على الأدب بما يعد منه وهو الغناء فيقول : « **وكان الغناء في الصدر** الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الاصبهاني(٢٧) كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وايامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتا التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمري انه ديوان العرب **وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال** ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الأديب ويقف عندها وانى له بها »(٢٨) .

فلا يمكن بعد هذه الشهادة اذن ان نغفل عن ادراج كتاب الأغاني ضمن أركان علم الأدب كما اقرها ابن خلدون ، ولئن فصل ذكره عن الأمهات الأربع الأول فلأنه تمسك باجراء تمييز مبدئي بين ما كان عليه الأدب عند العرب قبل ازدهار المدنية الطارئة عليهم بفعل الحضارة الاسلامية وما آل اليه أمر الأدب عندهم معها .

هكذا يتكامل هيكل المعارف اللغوية عند ابن خلدون على بنية رباعية تتدرج في تفاعل عضوي مبتدؤها علم اللغة ويتناول المادة اللفظية التي هي كالطاقة المعدنية في انجاز الظاهرة اللغوية ، وثانيها علم النحو وموضوعه تركيب الكلام الذي يثمر الطاقة التعبيرية وثالثها علم البيان ومداره أحوال التخاطب مما يولد الطاقة التواصلية وآخرها علم الأدب وبه تتفجر الطاقة الابداعية .

ولكن في أي اطار معرفي وأصولي تتنزل آراء **ابن خلدون في العلوم اللغوية وكيف اهتدى الى** صوغ نظرية تصنيفية في علوم اللسان ذات اقتران عضوي بمنهجه النقدي العام ، بل ما هي مقومات النظرية العامة التي تتعلق بالظاهرة اللغوية والتي تتواءم بها آراؤه فيما أسماه « علوم اللسان العربي » .

---

(٢٤) المقدمة ، ص : ٥٥١ .

(٢٥) المرجع : ص : ٥٥٣ .

(٢٦) أبو محمد ابن قتيبة :
ولد في الكوفة وعاش في بغداد ، تولى القضاء في دينور ولذلك عرف بالدينوري ، اهتم باعجاز القرآن فالف « تأويل مشكل القرآن » واهتم بالأدب فالف « الشعر والشعراء » و « أدب الكاتب » واهتم بالتاريخ فالف « عيون الأخبار » .
أبو العباس المبرد :
أبرز نحاة المدرسة البصرية في القرن الثالث توفي سنة ٢٨٥ للهجرة ، ألف كتابه « المقتضب » وهو في علم النحو والصرف والأصوات ، ولكنه اشتهر في الأدب أيضا بكتابه « الكامل » الذي جمع فيه منتخبات من الشعر والنثر وشرح ما كان مستغلقا .
أبو علي القالي البغدادي :
عاش بين أواخر القرن الثالث ومنتصف القرن الرابع ، عاش في بغداد ثم وفد على الاندلس اهتم بعلوم اللغة والأدب والحديث ، من أشهر مؤلفاته « الامالي » وهو جملة ما أملاه من دروس في جامع الزهراء بقرطبة . له أيضا « النوادر » و « البارع في غريب الحديث » .

(٢٧) أبو الفرج الاصبهاني
من أدباء القرن الرابع ولد في اصبهان ونشأ في بغداد ورعاه سيف الدولة الحمداني ألف كتاب الاغاني فكان في تاريخ التراث العربي فريد نوعه فيجمعه الأدب الى التاريخ والغناء الى الموسيقى .

(٢٨) المقدمة : ص : ٥٥٤ .

shwaihy

إن الركيزة المبدئية التي تجمعت في احضانها خصائص المنهج الخلدوني انما هي السمة الاختبارية التي أدرجت البحث وطرق الاستقصاء لديه داخل شبكة من النسيج الأصولي[٢٩] فطبيعي أن تأتي **بحوث عبدالرحمان بن خلدون في الظاهرة اللغوية** ضاربة جذورها في هذا المنهج الاختباري الذي **يتحرى به التشريح الموضوعي وتكتشف نواميس الحدث اللساني من حيث هو أداة للمعرفة** وموضوع لها في نفس الوقت[٣٠] .

ان مفتاح التصور العلمي في شأن الظاهرة اللسانية يأتي عند ابن خلدون في مستوى التعريف الذي يحدد به اللغة ، ويستند هذا التعريف الى **كل عناصر التفكيك الاختباري إذ يستجمع جملة** من القواعد أهمها التصويت والتواصل والعقد الجماعي : « اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة **المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلابد أن تصير ملكه متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم »[٣١].**

ولئن كان ابن خلدون في هذا المضمار وريث سنة مطردة عند كثير من أعلام الفكر اللغوي في الحضارة العربية الاسلامية فانه ما ان يزيد الظاهرة اللسانية كشفا وتمحيصا حتى يهتدي الى تنزيلها في صميم البعد الاجتماعي للتواجد البشري ، فتتحول الى نسيج رابط لكل أضلاع الهرم العمراني ، لأن ملكة تأليف الكلام على مقتضى أساليب المجموعة البشرية وقوالب لسانها هو الذي يفضي الى تركيب المقاصد والأغراض بين الفرد والجماعة .

على أن هذا البعد الاجتماعي في تقدير الظاهرة اللغوية يمثل هو الآخر أسا متواترا في الفكر العربي اجمالا ، بل لعله يجسم نقطة تقاطع المؤثرات المعرفية التي استقى منها ابن خلدون تصوراته المنهجية وحتى التعبيرية ، ولا شك أن مدونة صاحب العبر تكشف عن تفرد في مستوى المصطلحات وفي مستوى الصياغة الأسلوبية أيضا ، ولكن هذا التفرد ليس تولدا بالطفرة اطلاقا ولكن له جذورا لو سعينا الى استقصائها لحددنا لها مراجعها في ميراث الفكر العربي .

(٢٩) نعني : الابستيمولوجي .

(٣٠) للقارىء الكريم أن يراجع في هذا الموضوع بحثنا : الاسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون ، ضمن : قراءات ، الشركة التونسية للتوزيع ، ص ١٤٧ ـ ٢٠٠ .

(٣١) المقدمة ، ص ٥٤٦ .

ان هذا الاشكال لهو من المواطن التي يثمر فيها مبدأ امتزاج الاختصاصات، فلو تكامل البحث **بين عالم التاريخ وعالم اللسان لتوصلا الى كشف نقدي للمؤثرات المعرفية التي أحاطت بفكر ابن** خلدون ، والذي يتسنى لعالم اللسان أن يقدمه في **هذا المضمار هو التحليل المقارن بين النصوص على أساس بنية الأسلوب في الصياغة التعبيرية مما يكشف نسيج التركيب اللغوي المؤثر بمفاهيمه** ومصطلحاته وقوالب صياغته . ويقف الباحث على **جملة من النصوص للجاحظ وابن مسكويه والتوحيدي واخوان الصفاء[٣٢] لا شك انها قد** وجهت ابن خلدون وجهة مخصوصة اذ تسمح بالاستدلال على أن ابن خلدون كان يهتدي بمنارات ذهنية أضاءت فكره الاجتماعي وفتقت قريحته **في وضع علم العمران بل أن هذه النصوص قد كانت مثل الضوابط المؤثرة في لغة ابن خلدون** ذاتها حتى انك لو أصغيت اليها عفوا أو استدرجت اليها من يصغي ـ بالروية أو بدونها ـ ولم تنسبها لحملها السامع على أنها نصوص خلدونية ، وهذا الاختبار وان لم يكن في حد ذاته ذا معيار مطلق فانه يتخذ في علم التحليل اللغوي رائزا من الروائز **الدالة ، ولتأخذ من ذلك شاهداً : « ان السبب** الذي احتيج من أجله الى الكلام هو أن الانسان الواحد لما كان غير مكتف بنفسه في حياته ، ولا بالغ حاجاته في تتمة بقائه مدته المعلومة وزمانه المقدر المقسوم ، احتاج الى استدعاء ضروراته في مادة بقائه من غيره ، ووجب بشريطة العدل أن يعطي غيره عوض ما استدعاه منه بالمعاونة التي من أجلها

(٣٢) أبو علي بن مسكويه :

عاش بين (٣٢٠ ـ ٤٢١) للهجرة ، انصرف الى الفلسفة والطب والكيمياء فجاءت خواطره من الأدب الذهني ألف في التاريخ « تجارب الأمم » وفي الحكمة « تهذيب الأخلاق » واشترك مع أبي حيان التوحيدي في « الهوامل والشوامل » .

أبو حيان التوحيدي :

ولد سنة ٣١٢ للهجرة وتوفي حوالي سنة ٤١٠ ، فقيه وفيلسوف ومتصوف عاش في بغداد حياة دون ما كان يطمح اليه فجاء أدبه مزيجا من التأمل والمرارة خلف أدبا غزيرا ومن أشهر مصنفاته « الامتاع والمؤانسة » و « المقابسات » .

اخوان الصفاء :

ثلة من المتحابين عاشوا في القرن الرابع في البصرة وكانت غايتهم السعي الى سعادة النفوس لذلك اهتموا بالعقيدة والحكمة والسياسة . وضعوا مجموعة من الرسائل تعد موسوعة من المعارف فيها المنطق والرياضيات والالاهيات وعلوم الأدب واللغة .

shwaihy

قالت الحكماء : ان الانسان مدني بالطبع ، وهذه المعاونات والضرورات المقتسمة بين الناس ، التي بها يصح بقاؤهم وتتم حياتهم وتحسن معايشهم هي اشخاص واعيان من امور مختلفة واحوال غير متفقة ، وهي كثيرة غير متناهية ، وربما كانت حاضرة فصحت الاشارة اليها وربما كانت غائبة فلم تكف الاشارة فيها ؛ فلم يكن بد من ان يفزع الى حركات باصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح ليستدعيها بعض الناس من بعض ليعاون بعضهم بعضا فيتم لهم البقاء الانساني وتكمل فيهم الحياة البشرية .

هذا النص ذو الطابع الخلدوني كما نزعم ، هو لابن مسكويه من المصنف المشترك بينه وبين أبي حيان التوحيدي الموسوم بالهوامل والشوامل[٢٢] .

ومن دلائل المنهج الاختباري وثماره في نفس الوقت تحليل ابن خلدون لظاهرة التحول اللغوي بموجب سلطان الزمن على الانسان : الحيوان الناطق باللسان[٢٤] فاللغة هي احد مفاعلات الوجود الانساني اذ هي طرف المعادلة النوعية لثبوت خصوصية الانسان ، ولما كان الانسان حصيلة تعادلية بين طرفي وجود المادة زمانا ومكانا ، فان معادلة التفاعل تنصهر فيها عناصر اللغة والمكان والزمان فينتج حتما التغير والاستحالة .

فالاقرار بسلطان الزمن على اللغة ـ وان تلبس بموقف معياري ـ فانه صفاء في الرؤية الاختبارية لانه ناطق بقانون التغير اللغوي ، ولقد تمكن ابن خلدون بفضل ما حظي به من بعد زمني وعمق اصولي ان يرى هذه الظاهرة بمجهر الزمن المكبر ولم تختلط عليه السبل في شيء عندما صور حتمية التطور النوعي الطارىء على المؤسسة اللغوية بحكم انضوائها تحت ناموس العز فاستطاع ان يرتقب مراحل الزمن صعودا الى الماضي ليستكشف قوانين التغير منذ مطلع النهضة العربية الاسلامية وبذلك استطاع ان يسقط النواميس المحركة للظاهرة اللغوية من حاضره المعاين الى الماضي الغيابي ، فتسنى له ان يقيم جدلية تطورية اساسها مبدا التراكم والتغاير .

(٢٢) نشره احمد امين والسيد احمد صقر ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٦ ـ ٧ .

(٢٤) يراجع في ما سنعرض اليه في هذا الصدد بحثنا انف الذكر : الاسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون .

ويتظر ابن خلدون ظاهرة التحول والانسلاخ انطلاقا من مبدإين اساسيين هما المخالطة والغلبة . فاما المخالطة ـ التي هي احتكاك بالمجاورة ـ فتمثل التقل الاجتماعي في الفضية اللغوية ؛ وهي بذلك نموذج الضغط « العمراني » بالمعنى الخلدوني الصائر بعده الى دور كايم[٢٥] ، واما الغلبة فهي المحرك الحضاري والسياسي في تطور اللغة اذ تمثل قانون التداخل اللغوي طبقا لميزان القوى في الصراع السياسي بين المجموعات المتغايرة .

على ان صاحب العبر وإن احتفظ شكليا بالموقف المعياري من ظاهرة التغير فظل ينعتها بما لا يخلو من شحن تهجيني دابت عليه سنن الفكر الصفوي في تاريخ الحضارة العربية ـ وبموجب تلك السنن سمي التغير فسادا ـ فانه قد نفذ الى حقائق الظاهرة ولا سيما في نشوئها وتسربها الى الفرد ثم الى المجموعة حتى يتوطد عليها اللسان باعتباره المؤسسة الجماعية للتلقي .

فمجيء الاسلام الى العرب وخروجهم به من الحجاز الى حوزة الأمم الأخرى ثم طلبهم الملك ؛ كل ذلك قادهم الى مخالطة غيرهم من المجموعات اللغوية ؛ ولما خالطوهم « تغيرت تلك الملكة بما القى اليها السمع من المخلفات التي للمستعربين ، والسمع أبو الملكات اللسانية » وهكذا تغيرت « بما القى اليها مما يغايرها لجنوحها اليه باعتياد السمع » .

ويزيد ابن خلدون مشكلة التحول عن طريق التسرب بالاحتكاك والتداخل كشفا واستنطاقا مقيما قانونه الجدلي الذي بموجبه يتمازج العنصران فيصدر عن انصارهما عنصر ثالث مغاير لكليهما : « ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخاطبتهم الاعاجم وسبب فسادها أن الناشيء من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات اخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات العرب ايضا ـ فاختلط عليه الامر واخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة »[٢٦] .

(٢٥) أميل دوركايم :

فرنسي عاش بين (١٨٥٨م ـ ١٩١٧) اختص بالبحث في علم الاجتماع محاولا ارساء قواعده العلمية على نزعه المنهج الوضعي الذي بلوره اوغيست كونت. من اشهر كتبه « قواعد المنهج الاجتماعي » وضعه سنة ١٨٩٥ .

(٢٦) المقدمة ، ص : ٥٥٥ .

ويبلغ نفاذ الحس الاختباري عند ابن خلدون نموذجه الأوفى في المطارحة اللغوية عندما يهتدي الى ان التغير المتسلط على اللغة العربية قد جرها من صنف اللغات التاليفية الى صنف اللغات التحليلية وذلك في الممارسة الحيوية العربية وان سقوط حركات الاعراب قد استعاضت عنه اللغة بقوانين داخلية انتظمت بموجبها العربية انتظاما جديدا . على ان صاحب المقدمة سيثاقب الرؤية الموضوعية يقرر ، في جزم ، حكمة البناء اللغوي وقابلية اللسان ، ايا كان ، الى العقلنة : « في ان لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير ، وذلك انا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ، ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول ، فاعتاضوا منها بالتقديم والتاخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد (...) ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بامور اخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها ، ولعلها تكون في اواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر ، فليست اللغات وملكاتها مجانا »(٣٧) .

على ان قانون التغير والاستحالة لا يتسلط على اللغة من حيث هي نظام مغلق وانما هو يبدأ بالنفاذ الى مسامها عبر جهازها الدلالي ، ويتطرق ابن خلدون الى ظاهرة تغير الدلالات في الكلام من خلال كشفه لحقائق العلم البلاغي الموسوم بالبيان ـ كما اسلفنا ـ وهو اذ يعمد الى تحسس مقومات هذا العلم بمنظار الاصولي الباحث في الركائز المعرفية التي تقوم عليها افنان العلوم الانسانية يهتدي الى استنباط طريف لا يستطيع الناظر اللساني المعاصر الا ان يقربه من منهج العلاميين في بحث اسرار اللغة .

ومفادما يقرره صاحب العبر هو ان تحويل دلالة الالفاظ من وجهتها الابتدائية يخرج بها اصلا عن دلالة اللغة من حيث هي نظام خطابي معين ويلج بها الدلالة بالهيئات والاحوال والمقامات، ومعناه ان الذي يدل في حالة تركيب الكلام على المجاز ليس هو ذات الالفاظ بقدرما هو مواضع بعضها بالنسبة الى بعض من جهة ، ومواضعها بالنسبة الى العقل المفكر والمدرك لعلاقتها من جهة اخرى .

على ان البحث في امر تولد المواضعات المعجمية يقترن بتوليد العلوم والمعارف لانه يحقق مبدا اصوليا يتصل مباشرة بالادراك المعرفي عن طريق قضاياه اللسانية ؛ وهو ان لا مناص لاهل كل علم واهل كل صناعة من الفاظ يختصون بها للتعبير عن مراداتهم وليختصروا بها معاني كثيرة ، ولهذا التقرير بعد معرفي بما انه يربط الفكر باللغة من حيث يعلق العلم على ادواته اللغوية ؛ كما ان لهذا القانون انعكاسا مباشرا على الرابطة العضوية المعقودة بين العقل البشري والمعرفة الكونية .

وذلك ان نفاذ الفكر لمحصول العلم بالادراك، فالتمثل ، فالاستيعاب ، لا باب له الا ثبته الفني مما يجعل اللغة مسؤولة بريئة في نفس الوقت : هي مسؤولة عن ايصال الفكر لمضمون المعرفة وهي كذلك بريئة لان قصور الانسان عن ادراك المخزون العلمي الذي هي حامل به لا تلقى تبعته على اللغة وانما ذلك يعزى الى قصور في ملكات الادراك التي للعقل .

فاذا تقرر مبدا اقتضاء كل علم لثبت اصطلاحي مخصوص انبسطت الاشكالية الجوهرية التي هي كيفية اشتقاق هذا الثبت من صميم المواضعة اللغوية القائمة ؛ وهنا ، بالضبط والتحديد ، تكمن طواعية اللغة في تحريك شبكة مواضعاتها بالتوليد والتناسخ ، وفكرة ثبت العلوم قد تبلورت في ذهن ابن خلدون بكيفية سمحت له بان يتحدث عنها مجردا لها عبارتها المخصوصة دونما احساس باختلاط او تلابس : فهو يقرن المعرفة بمصطلحها الفني مما يجعل صاحب العلم محتاجا « الى معرفة اصطلاحاته ليكون قائما على فهمه »(٣٨) .

والذي يخص البحث في هذا المقام هو ان ابن خلدون قد صور بحس لساني طريف كيفية نشوء ثبت العلوم ابتداء من رصيد اللغة القائم فعلا، وذلك بواسطة التحويل التواطئي الذي يرتكز على اشتقاق اقتران دلالي حادث من اقتران سالف . ومن اوضح الامثلة الخلدونية على هذه الظاهرة اللصيقة باللغة ما نستقرئه من ثبت اصطلاحي في علم الحديث يورده صاحب المقدمة استدلالا على اكتساح العلم اجهزة اللغة بالتحويل والتوليد، ومما صاغه علماء الحديث بالوضع الاصطلاحي الطارىء طبقا للمراتب المنتظمة في فنهم : « الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضول والشاذ والغريب والمشكل والتصحيف والمفترق والمختلف » ولكن اطرف ما في

(٣٧) المرجع ، ص ٥٥٥ ، ص ٥٥٧ .

(٣٨) ص ٥٥٢ .

استقراء ابن خلدون انتهاؤه الى ان معرفة هذه الاصطلاحات هي ذاتها علم الحديث فيكون بذلك قد طابق بالتمام بين المعرفة وثبتها الاصطلاحي المحول عن وضعه الدلالي المشترك الى الوضع المعرفي الحادث(٣٩) .

ومما يبدو على حظ وافر من البداهة ان احكام ابن خلدون لنظرية الاكتساب والتحصيل في شان الظاهرة اللغوية انما جاء ثمرة من ثمار منحاه الموضوعي ومنزعه الى الاستقراء التجريبي ؛ فقد نفذ بحس دقيق ـ كاد يتفرد به ـ إلى مفاعلات الاكتساب اللغوي متحسساً قوام الظاهرة الكلامية انطلاقا من فكرة الملكة وملابستها التجريبية ، واول ما يتقرر لديه في هذا المضمار أن الملكة في الحدث اللغوي تستند الى حصوله كلا لا يتجزأ ؛ أي أن ممارسة الانسان للغة بالملكة تنفي عنه أن يكون واعيا بانفصال مفرداتها عن تراكيبها(٤٠) وهو ما ينم عن بصيرة عميقة عند صاحب المقدمة في امر الظاهرة اللغوية مما يلحق الاكتساب عن طريق المنشا الطبيعي بقوانين الادراك الشمولي حيث يعي الانسان الكل دون أن يكون حتما قد وعى اجزاءه .

وبعد ان يقرر ابن خلدون كيف « أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده » يتطرق الى تحديد فكرة الملكة بالاعتماد على مستويين : الأول فصل ابنية الدوال في الكلام عن ابنية المدلولات ، والثاني بيان مراتب التعبير ابلاغا او ابداعا . ويحلل في هذا المضمار كيف تنحصر مواضعات اللغة باعتبارها جملة القوانين المرتبة لبنائها في نسيج الدوال اللغوية لان الذي في اللسان والنطق ـ على حد عبارته انما هو الالفاظ ، واما المعاني فهي في الضمائر ، موجودة عند كل واحدة وفي طوع كل فكر . وهكذا يكون تاليف الكلام للعبارة عن المعاني محتاجا للقوالب التي تقررها المواضعة اللغوية .

وينتهي ابن خلدون الى أن « الجاهل بتاليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن المقصود ولم يحسن ؛ بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه »(٤١) فيكون مفهوم الملكة اللغوية متطابقا مع مبدأين اساسيين هما مبدا العلم والمعرفة ، ومبدا القدرة او الاستطاعة وبينهما من التفاعل العضوي مثل الذي بين الادراك والتعبير اي مثل ما بين التلقي والبث ، اوقل التفكيك والتركيب . ويتناول ابن خلدون ـ على عادته في تعقب مزالق الدارسين حينما تفوتهم صرامة المصطلح او تغيب عنهم اسرار المفاهيم ـ فكرة الملكة بمقارنتها بمختلف العناصر الحافة بها او الملابسة لها ؛ ولا سيما تلك التي جرى على لسان بعضهم أنها بدائل لفكرة الملكة كما أسلفنا ؛ فاذا به ينفذ بالتجريح والتعديل قضية الطبع والجبلة باعتبارهما من مقومات مفهوم الملكة ، فينتهي به البحث والاستقراء الى الفصل الصريح بين الطبع والاكتساب مما يعزل البعد اللغوي عن معطيات الجبلة من حيث هي الطبيعة الاولى للانسان ، ذلك ان الملكات اذا استقرت ورسخت ظهرت كانها طبيعة وجبلة » ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شان الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعرابا وبلاغه امر طبيعي ؛ ويقول كانت العرب تنطق بالطبع ؛ وليس كذلك وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادىء الراي انها جبلة وطبع » . ثم يحتكم ابن خلدون الى جوهر قضية الاكتساب ليتدعم به رايه في تمييز الملكة من الطبع في شان اللغة مؤكداً أن « هذه الملكة انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك الذي استنبطها اهل صناعة اللسان فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها »(٤٢) .

ولكن ابن خلدون تستوقفه قضية ارتباط الملكة، من حيث هي استعداد ما قبلي في الانسان ، بمشكل الاكتساب باعتباره ترويضا لطاقة الانسان على الحركة والابتكار ، فيحاول في هذا المجال ان يخلص محور الملكات مما يستوعبها من فكرة الصناعات فيبين كيف تنقسم الصنائع الى بسيط ومركب ، فالبسيط يختص بالضروريات والمركب يكون للكماليات والتقدم منها في التعليم ـ وهذا هو بيت القصيد في معضلة الاكتساب ـ هو البسيط لبساطته اولا ولانه مختص بالضروري : « ولا يزال الفكر يخرج اصنافها ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط شيئا فشيئا على

(٣٩) ص : ٤٤١ ـ ٤٤٢ .
(٤٠) ص : ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .
(٤١) ص : ٥٧٧ ـ ٥٧٨ .
(٤٢) ص : ٥٦٢ .

التدريج حتى تكمل ؛ ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في أزمان وأجيال ، اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الأمور الصناعية فلا بد له اذا من زمان » .

وهكذا يتضح خط الفصل بين الملكة والصناعة كفكرتين اختباريتين في علاقة الانسان بمعضلة الاكتساب في الوجود عامة ، فيتبين ـ من استقراءات ابن خلدون خاصة ـ أن الصناعة هي ملكة في امر عملي فكري بمعنى ان الصناعة والملكة تلتقيان في ممارسة المحسوس من الاحوال فتكون « الملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكوره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته ، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة »(٤٣) .

على أن ابن خلدون يبلور مبدأ اجتماع عنصري الملكة والصناعة في مفهوم اللغة وذلك بادخال محلها جميعا وهو اللسان فيتخذ منه محورا مركزيا ينسب اليه الاستعداد بالملكة والرياضة بالصنعة فيصبح الكلام مهارة مكتسبة بالاستعداد والمران في نفس الوقت ؛ فتتنوع عبارة ابن خلدون في وصف اللغة : فهي : « ملكة اللسان » مرة هي : « صناعة ذات ملكة » طورا ؛ وهي « ملكة اللسان بمنزلة الصناعة » تارة اخرى(٤٤) .

أما طرائق الاكتساب اللغوي فانها تكتسي عند ابن خلدون بعدا مزدوجا من التنظير والاختبار لأن صاحب المقدمة يزاوج بين تفحص ملابسات التحصيل واستكشاف نواميس الكلام من خلال تلك الملابسات في نفس الوقت ولكن اول مبدأ ينطلق منه اختباريا هو تقرير أن « السمع ابو الملكات اللسانية »(٤٥) والسر في ذلك ـ حسبه ـ ان النفس تجنح لما يلقى اليها ، لذلك كان لسان الانسان صورة للسان من ينشأ بينهم لأنه يسمع كلامهم واساليب مخاطبتهم وكيفيات تعبيرهم عن مقاصدهم ابتداء بالمفردات في معانيها وانتهاء بالتراكيب في انتظام بعضها ببعض ولا يزال يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة راسخة .

وهكذا يتركز على يد ابن خلدون مبدأ الارتياض بالمعاودة فيكون اكتساب الحدث اللغوي محصول معادلة الممارسة والتكرار اي هو منتوج الفعل مضروبا في الزمن ، وهذا هو حد الملكة كما أسلفنا « والملكات ـ كما يقول ابن خلدون في هذا السياق بالذات ـ لا تحصل الا بتكرار الافعال ، لان الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة تتكرر فتكون حالا ؛ ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار ، فتكون ملكة ، أي صفة راسخة »(٤٦) وبديهي أن يلح ابن خلدون ـ ومنطلقاته على ما تبين من الصرامة الاختبارية ـ على تميز ملكة الحدث اللساني عن مجرد الفهم او الادراك لأن القدرة على فهم قوالب المواضعة اللغوية لا تتضمن وجوبا القدرة على صياغة تلك القوالب او مثيلاتها ، فلحظة عقد الاكتساب تتحدد اذن بحصول القدرة على التصرف في التعبير بحسب ما وعاه الانسان من تراتيب الالفاظ واساليب النظم(٤٧) .

ذلك اذن ما يمكن أن نطلق عليه لحظة التحول من الاختزان الى الانجاز بالتصرف العفوي والابتداء التلقائي ؛ وهو ما يسميه ابن خلدون « فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة »(٤٨) اما الطريف على الصعيد النظري بعد محاصرة فضايا الاكتساب عمليا فهو اهتداء صاحب المقدمة الى تحديد اللغة بأنها مثالات مجردة تقوم مقام المنوال أو القالب او الاسلوب ـ وكلها من مصطلحاته ـ وما اكتساب الكلام الا استرسال لجملة منوالاته المولدة له ، لأن « مؤلف الكلام هو كالبناء والنساج ، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه او المنوال الذي ينسج عليه(٤٩) .

فحصول ملكة اللسان رهينة المعاودة المفضية الى ارتسام المنوال الذي نسجت عليه مواضعات اللغة في مخيلة المتعلم بحيث إذا هم بالخطاب نسج من حيث يشعر اولا ينسج على منوال سننها(٥٠) والسر في ذلك ان ما تلقاه وحفظه عند الاستعمال والاختبار وان ذهب رسمه الحرفي الظاهر من الذاكرة فقد تكيفت النفس به حتى انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يؤخذ بالنسج عليه(٥١) .

---

(٤٣) ص : ٤٠٠ .
(٤٤) ص : ٥٦٨ ـ ٥٦٩ .
(٤٥) ص : ٥٤٦ .
(٤٦) ص : ٥٥٤ .
(٤٧) ص : ٣٥٩ .
(٤٨) ص : ٤٣١ .
(٤٩) ص : ٥٧٢ .
(٥٠) ص : ٥٦١ .
(٥١) ص : ٥٧٤ .

ويدقق ابن خلدون قضية المنوال التوليدي ــ وبه تتحدد اللغة ــ عندما يقرنه بفكرة الاسلوب في الصياغة الفنية التي ايضا تركيب لنفس الادوات الكلامية الأولى ــ وهذا المزج ينتهي الى تعميق فكرة الطاقة المولدة لمواضعات اللغة اذ يقرر ان الأساوب « عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب او القالب الذي يفرغ فيه » ، وترتبط هوية هــذه القوالب « بصورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كليــة باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن مــن اعيان التراكيب واشخاصهــا ويصــيرها في الخيال كالقالب او المنوال » بحيث اذا هم الانسان بالمخاطبة والمحاورة انتقى التراكيب الموائية « فيرصها في ذلك المنوال رصا كما يفعلــه البناء في القالب ، أو النساج في المنوال حتى يتسـع القالــب بحصول التراكيب الوافيــة بمقصــود الكــلام »(٥٢) .

هكذا يفضي المنحى الاختباري بابن خلــدون الى تحديد طاقة الشمول في الظاهرة اللسانية عموما انطلاقا من علاقة الانسان باللغة اذ للانسان قــدرة على استعمالها رغم عجزه عن استيعابها(٥٣) ، وهذا مــا يستجليه صاحــب المقدمة بعــين الاستغراب والاستطراف في نفس الوقت ، وفعلا فلا اللغة من حيث هي قاموس ، ولا الكلام من حيث هو اشكال نحوية متنوعة ، ولا الخطاب من حيث هو نمط مخصو ص من النسج اللغوي بداخلة تحت طاقــة الحصر لدى الانســان : لذلك فان مظاهر القصور في الانسان تنعكس ابعادا من التجاوز الاستيعابي لدى اللغــة .

ولا ريب أن الروح الاختباري قد كان مركز النظر ومعول الفحص عند ابن خلدون ، بل كل عدسة اوقفته على حقائق كثير من الامور مما يخفى عن العين المجرده فلا يتجلــى الا لذوي المجاهــر المعرفية ، وقد نحت ابن خلدون لنفسه هــذا المجهر المكبر فشحنه بعدسات اختبارية متكاثفة كانت لــه منطلقات في البحث التجريبي ، وسندات في الكشف التجريدي ، ومنارات في التحقيق الأصولي، فتضافرت لديه الأبعاد وتقلصت احجامها من مركز الدائرة الادراكية ، ففدا المنطق والعمران والحساب والمعاش حلقات مــن لولب واحــد يهتز محصلا لصاحبه المعرفة الكلية ثم كان استقراء البعد اللساني سياجا يحاصر المعرفة ويحميها في نفس الوقت ، وكان طبيعيا ان تأتي نظرية ابن خلدون في اللغــة مجمع الرؤى الاختبارية التي تتحدى الفكر المعاصر بصرامة مقولاتها وعنف موضوعيتها .

ان مقدمة ابن خلدون قد مثلت منظومة الفكر الأصولي المتكامل في مسار الحضارة العربية وهذه الحقيقة تستوجب التسليم بأن ابن خلدون ــ فضلا عن انه فلسف علم التاريخ واشتق علم العمران ــ قد امسك في مقدمته بأزمة مراتب اخرى تتداخل وتتفاعل الى حد التراكب الكثيف .

فهو في المنزلة الأولى مؤرخ للعلوم ، وفي المنزلة الثانية ناقد لأصول العلوم ومناهجها وثمارها ؛ ثم هــو في الثالثة منقب عــن خصائص المعرفــة الانســانية وكليات الادراك البشــري عبر جهــازه اللغــوي .

(٥٢) ص ٥٧٠ ــ ٥٧١ .

(٥٣) ص : ٥٣٢ .

● ● ●

WWW.ATTAWEEL.COM